

النقد والنظرية

لقد شهدت المكتبة النقدية العالمية خلال العقود المنصرمة ظهور العشرات من الكتب النقدية التي تُعنى تحديداً بفحص مفهوم النظرية الأدبية Literary theory وهو حقل لم يكن يجد مثل هذه العناية والانتساع من قبل، فقد أصبح اليوم البحث عن ماهية النظرية الأدبية هو الشغل الشاغل للاتجاهات والمدارس الأدبية المختلفة، لكن لا يمكن القطع بأن هذا البحث والاحتفاء به جديد تمام بالنسبة للمكتبات العالمية وحتى العربية؛ فهناك العديد من العناوين المهمة في هذا الميدان، والتي اتخذت من النظرية الأدبية عنواناً لها مثل كتاب:

- فن الشعر لأرسطو؛ والذي يُعد من أوائل ما كُتب في هذا الميدان.
 - نظرية الأدب لمجموعة من النقاد والباحثين السوفييت.
 - مقدمة في نظرية الأدب. عبد المنعم تليمة.
 - نظرية الأدب للناقد رنيه ويلك، أوستن وارين، أين:
- فرق الناقدان بين حقول معرفية متداخلة، تتخذ من الأدب مجال اهتمامها واشتغالها، وهي النظرية الأدبية، والنقد الأدبي، والتاريخ الأدبي. في باب "نظرية الأدب" يضع الناقدان مبادئ الأدب ومقولاته ومعاييره. يُخصّص الناقدان مصطلح التاريخ الأدبي للدراسة السكونية لأعمال أدبية محدّدة، بينما ينصرف التاريخ الأدبي للكشف عن السياق التاريخي الذي يشد هذه الأعمال الأدبية.
- اعترض الناقدان على الاتجاه الشائع الذي يرى أنّ النقد الأدبي يشمل نظرية الأدب، وي طرحان مقابل ذلك مفهوماً عكسياً يرى أنّ مصطلح نظرية الأدب يمكن أن يتضمن بشكل ملائم مصطلحي نظرية النقد الأدبي ونظرية التاريخ الأدبي.

اتخذت الدراسات في ميدان النظرية الأدبية اتجاهين أساسيين:

- بعض الدراسات جاءت شاملة للمشهد النقدي، تُعبّر عن وجهة نظر مؤلف واحد، مثل:
 - دليل القارئ للنظرية الأدبية المعاصرة للناقد رمان سلدن. 1985.
 - النظرية الأدبية للناقد تيري إيجلتن. 1983.
 - فك مغاليق النص، القضايا الأساسية للنظرية الأدبية. لمؤلفه جيرى هوثورن 1987.
- بعضها الآخر تكشف عن جهد جماعي ممثل في انتقاء مختارات نقدية ونظرية تتمحور تحت مفهوم النظرية النقدية، مثل:
 - النقد الأدبي والشعر. تحرير ديفيد ميرى سنة 1989.
 - النظرية الأدبية في التطبيق. ثلاثة نصوص. للناقد دوغلاس جالاك سنة 1987.
- النقد والنظرية النقدية للناقد جيرمي هوثورن 1984، والذي حاول أن يُميّز مصطلح النظرية الأدبية عن مجموعة من المصطلحات المقاربة: النقد الأدبي، والنظرية الأدبية، والنظرية النقدية؛ حيث يرى أن:
 - النقد الأدبي يُعنى بالنقد التطبيقي لنصوص معينة.
 - النظرية الأدبية تُعنى بالمعرفة العامة لطبيعة الأدب الذي يمكن تجريده من النقد الأدبي.
 - أما النظرية النقدية فتُعنى بدراسة النقد الأدبي ذاته؛ فهو يرى أن: النظرية الأدبية لا تُناهض التأويل أو تتحكم فيه، بل تختص بالدراسة العامة لطبيعة الأدب استناداً إلى التجريد الناشئ عن ممارسة نقدية أدبية حقيقية. مما يعني أنّ نظرية الأدب تُعنى بدرجة أكبر بطبيعة الأدب ووظيفته ودوره، ولكن ليس بالطريقة التي يتعامل بها الناقد مع الأعمال الأدبية؛ إنّما بتحديد ماهية هذه الأعمال وما هي حدود وظائفها.
 - النظرية الأدبية الفرنسية اليوم. للناقد تزفيتاتن تودوروف. سنة 1982، يكاد تودوروف في مقدمة كتابه أن يُقيم تماثلاً بين الشعرية والنظرية الأدبية ثمّ

يُحاول أن يُقيم تعارضاً بين: الشعرية أو نظرية الأدب من جهة ومفهوم التأويل أو النقد الأدبي من جهة ثانية.

هناك فرق بين النظرة التي تعتبر الأدب كيانا متزامنا وبين النظرة التي تعتبر الأدب سلسلة من الأعمال المرتبة حسب تسلسلها الزمني وأجزاء لا تنفصل عن مسار التاريخ، هناك فرقا بين دراسة المبادئ والمعايير الأدبية، وبين دراسة الأعمال ذاتها، سواء درست بمعزل عن غيرها أو كجزء من أعمال مرتبة حسب تسلسلها الزمني.

نظرية الأدب تدرس مبادئ الأدب وأصنافه ومعاييره، حيث تنتمي الدراسات التي تركز اهتمامها على الأعمال الأدبية نفسها إمّا إلى النقد الأدبي وتتسم هنا بثبات أسلوب التناول، وإمّا إلى التاريخ الأدبي.

النقد الأدبي كثيرا ما يستخدم بشكل يجعله يشتمل على النظرية الأدبية.

النظرية والنقد والتاريخ هذه الأنماط الثلاثة تستلزم بعضها البعض؛ أننا لا نستطيع أن نتصور:

- نظرية بدون نقد أو تاريخ.
- النقد بدون نظرية أو تاريخ.
- التاريخ بدون نظرية ونقد.

إلا أننا نجد من يتعصب لفرع دون آخر ويقول بالنظرية فقط أو التاريخ فقط أو النقد فقط؛ ممن يسعون لتعظيم شأن فرع على آخر، إلا أنه لا داع للتفريق بينهما:

- نظرية الأدب يقابلها علم الأدب والتي تعني الأدبية.
- النقد فن قائم بذاته، هو نوع من الأنواع الأدبية، ميزته أن كل شيء فيه يجب إن ينسب لنا نحن، والمعيار الوحيد في النقد هو الشعور الشخصي؛ أي التجربة، هدف النقد هو المعرفة الفكرية، فهو لا يخلق عالما خياليا مختلفا كعالم الشعراء أو الموسيقا؛ بل هو معرفة فكرية أو يهدف إلى الوصول إلى المعرفة الفكرية. ويهدف في النهاية إلى الوصول إلى معرفة منظمة تخص الأدب، أي إلى نظرية أدبية. لذلك يرى نورثروب فراي أنّ النقد بنيان من

الفكر والمعرفة له وجوده الخاص. ينظر إلى الأدب في التاريخ الأدبي باعتباره منتما إلى حقبة تاريخية ولا يقوم إلا بالنسبة إلى تلك الحقبة.

- النظرية الأدبية ليست مجموعة من الأفكار المنعزلة، ولكنها قوة في المؤسسات؛ يرى البعض أنّ النظرية الأدبية مجرد وصف مدارس النقد الأدبي.

هل النظرية الأدبية هي سلسلة من المقاربات المتنافسة يتم معالجتها منفردة؟ بين المقاربات تشابه، أشياء مشتركة فهل يمكن الحديث عن نظرية عامة لا نظريات معينة؟ يرى **جوناثان كلر** أنّه من الأحسن أن تُناقش النظرية الأسئلة المشتركة من أن تُقدّم فصلا للمدارس النظرية.

- النظرية غيرت جذريا طبيعة الدراسات الأدبية، لكن الذين يقولون بهذا الرأي لا يقصدون نظرية الأدب بوصفها التقرير التنظيمي لطبيعة الأدب ومناهج تحليله. والقول أنّ ثمة تركيزا كبيرا على النظرية في الدراسات الأدبية فإنهم لا يقصدون التأمل التنظيمي الكثير جدا في طبيعة الأدب أو الجدل حول الخصائص المميزة للغة الأدبية مثلا، أو باقي بنيات الأدب، على العكس، فإنهم يعنون شيئا آخر؛ فما يقصدونه بطريقة دقيقة أنّ ثمة مناقشات كثيرة جدا لا تمت للمسائل الأدبية بصلة.

- النظرية عادة ما تكون نقدا لمفاهيم الإدراك المؤلف واستكشافا للمفاهيم البديلة، وهي تعني إعادة طرح أسئلة من نوع: ما المعني؟ هل ثمة نموذج لنظرية ما؟ يمكن تعريف النظرية على أنّها خطاب له نتائج خارج معرفة أصلية، وأنّها تحليلية وتأملية، وهي نقد للإدراك المؤلف وللمفاهيم المسلم بأنّها طبيعية، كما أنّ النظرية انعكاسية فهي تفكير حول التفكير، وفحص للمقولات التي نستخدمها في فهم الأشياء وفي الأدب وفي الممارسات الخطابية الأخرى.

يُقرّر جوناثان كلر أنّ النظرية لا تُقدّم مجموعة من الحلول، ولكنها تُقدّم إمكانية الفكر الأبعد؛ إنّها تقتضي التزاما بالعمل على القراءة، وعلى اختبار الافتراضات القبلية وعلى مساءلة الافتراضات التي تُمارسها عليها.

المراجع المعتمدة:

- جوناثان كلر. مدخل إلى النظرية الأدبية. ترجمة مصطفى بيومي عبد السلام. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة. 2003.
- جيرمي هوثورن. النقد والنظرية النقدية. 1984.
- تزفيتان تودوروف. النظرية الأدبية الفرنسية اليوم. 1982.
- رمان سلدن. دليل القارئ للنظرية الأدبية المعاصرة. 1985.
- رنيه ويلك، أوستن وارين. نظرية الأدب.